

النقد الجزائري النّسقي بين إشكالية الإجراء وصعوبة فهم الأصول، السيميائية أنموذجا.

*Algerian systematic criticism: between the problem of
procedure and the difficulty of understanding origins,
semiotics as a model.*

أحمد دهليز^{1*}؛ نادية ناجي²

¹ - جامعة أحمد بن يحيى الونشريسي؛ تيسمسيلت (الجزائر).

- البريد الإلكتروني: dehlizahmed@gmail.com

² - المركز الجامعي شريف بوشوشة؛ أفلو (الجزائر).

- البريد الإلكتروني: n.nadji@cu-aflou.edu.dz

تاريخ الإرسال: 2025/07/26؛ تاريخ القبول: 2026/04/10؛ تاريخ النشر: 2026/06/15.

الملخص:

نسمى في هذا البحث إلى التنقيب في مدونة النقد الجزائري
النسقي، من خلال تناول إشكالية تطبيق المنهج السيميائي لدى نقادنا
بالتحليل والدراسة. كما نتطرق إلى قضية محورية تتمثل في ضعف
استيعاب الأصول الإبستمولوجية، والخلفيات الفكرية والفلسفية التي
أسهمت في نشأة هذا المنهج، والبيئة الثقافية التي احتضنته.

وسنقف كذلك عند شمولية المنهج السيميائي، وتعدد آلياته
الإجرائية، واختلاف طرائق تطبيقه على النصوص السردية من جهة،
والنصوص الشعرية من جهة أخرى. وقد لاحظنا في هذا السياق وجود

قدر كبير من الاضطراب والخلط المنهجي لدى النقاد، لا على مستوى
الساحة الجزائرية فحسب، بل في النقد العربي عموماً.
الكلمات المفتاحية: النقد النسقي؛ السيميائية؛ الخلط المنهجي؛
المصطلح؛ العلامة اللغوية.

Abstract:

This study seeks to explore the corpus of Algerian systemic criticism by examining in detail the problem of applying the semiotic approach in local critical practices. It also addresses a central issue, namely the insufficient understanding of the epistemological foundations and the intellectual and philosophical backgrounds that led to the emergence of this approach, as well as the cultural environment in which it developed.

Furthermore, the study highlights the comprehensive nature of the semiotic method, the multiplicity of its procedural tools, and the diversity of its applications to narrative and poetic texts. In this regard, a significant degree of methodological confusion and inconsistency has been observed among critics, not only in the Algerian context but also within Arab criticism in general.

Keywords: Systemic Criticism, Semiotics, Methodological Confusion, Terminology, Linguistic Sign.

مقدمة:

لا ريب أن كلّ انتعاش فكري إنسانيّ كان نتيجة تطوّر العلوم
الإنسانية الحديثة، فلقد برزت نظريّات ومفاهيم سايرت متغيرات
الحياة البشرية في جميع مراحلها من منطلق مسلمة أن الإنسان يؤمن
بالطموح ويبحث دوما عما هو أحسن مما كان، ويؤكّد غاستون
باشلار أن تقدّم المعرفة العلمية لا يتحقّق إلا عبر تجاوز التصورات

السابقة وبناء مفاهيم جديدة أكثر صرامة، وهو ما يطلق عليه «العقبة الإيستيمولوجية» وضرورة تحطيمها لتشكيل عقل علمي جديد (بوغالم، 1938، ص.109).

وهذا لاشكّ أنّه فتح المجال الرحب أمام الإيستيمولوجيا فكرا وثقافة جعلها تخطو قدما بوتيرة مخالفة عن سابقتها تتحدد وتتجدد باستمرار، ولا نبالغ إن راهنا على أنّ العلوم الإنسانية هي الساحة الأكثر ملامسة لهذا التقدم المعرفي والعلمي وبالأخص الفنون والآداب، وباعتبار مقالنا هذا يصب في فرع من فروع الأدب ونعني به النقد الأدبيّ، فهو الآخر استهدفه هذا المنحى التطوريّ، فلقد عرفت لغته ومرتكزاته التّظليليّة، وأدوات اشتغاله الإجرائيّة التطبيقية، ومناهجه الاستيطاقية تارة التجديد والتجاوز تفاديا لاستهلاك المقولات السابقة التي وصلت إلى مرحلة الشّيع حتى التّخمة أو الاجترار حتى الملل، وتارة أخرى تميّز بالاجتهاد والإضافة وإتمام ما اعتور الدّرس النّقدي من نقص أو إغفال في المراحل الأولى عند إنجازه، والملاحظ أنّ معظم الباحثين لا يزلون في تحد متواصل وصراع دؤوب فرضته حتمية الابتكار والابداع للانتقال من حالة السكون والثبات التي تلغي إنسانيته إلى حالة الحركة والوعي والنشاط الفكري.

لقد شهد حقلُ الإبداع الأدبيّ والمناهج التي أعدت لمقارباته تحولاتٍ عدّة، وما كثرة الاتجاهات وتنوّع المدارس الأدبيّة والمناهج النقدية الحديثة والمعاصرة إلا صورةً في مرآة محدّبة تعكس واقع كثافة البنى الذهنيّة التي تتأرجح بين مدّ المأمول وجزر الانكسار. وقد

واكب هذا التغيير تطوّر المناهج النقدية، فتباينت فيما بينها في عملية
سبر النصوص وإدراكها وتحديد قيمتها.

فقد صار النصّ تركيبةً من دوالّ ومدلولات، وشفراتٍ ورسائل،
وأشكالٍ ومضامينٍ تحمل قيماً اجتماعيةً أو دينيةً أو فلسفيةً أو
تاريخيةً، أو تتجاوز ذلك كلّهُ. فالفكرة الواحدة قد تُصاغ بلا نهايةٍ من
العبارات، غير أنّها تظلّ تُحيل إلى نفسها، ومع ذلك فإنّها، كال موج،
تعلو وتتحطّ من مستوى إلى آخر، رغم تماثلها في المعنى.

ومن هذا السياق، اتّجه البحث إلى الشّكل عوض الاختصار
على المضمون الواحد المتّسم بالتكرار والرتابة، وقد صوّب النقد
المعاصر درسه نحو هذه الوجهة.

وهذا ما نادت به اللسانيّات وتبنّته بوصفها علماً يدرس اللغة
والكلام، والعلامة اللغوية وغير اللغوية، والإشارات والرموز؛ إذ
صاحب ظهورها ميلادٌ عهدٍ جديدٍ بمفاهيم وأفكار وفلسفة تُعدّ منتجاً
مستحدثاً في حقل اللغة، الذي بدوره أدّى إلى تشكيل المناهج النقدية
الأدبية الحديثة، وأسهم معظمها في تأصيل الدراسة النقدية المنصبّ
اشتغالها على النصّ، متحديةً بذلك كلّ ما من شأنه أن يقف في صفّ
إغلاق النصّ.

فتساءل الباحث النصّ حيناً، وترقّب توقّعاته حيناً آخر، فیسلمّها
مفاتيح أقاله وشفراته، فينسلخ من النصّ نصّ في حلّة جديدة، وينتج
عنه إنتاجٌ مغاير، فتبرز وتنبثق عوالم لم تخطر من قبل على بال كاتب
النصّ نفسه، فقد يستغريها. لقد أثّرت اللسانيّات الحديثة في النّقد
الأدبي وتركت فيه بصمتها، مكنته من آليات منهجية لم يكن

ليحققها بدونها، ليخترق حدود القراءات السياقية التي تهتم بدراسة النص في إطار محيطه الخارجي وكأنه وثيقة جامدة، فتحوّلت الرؤية إلى دراسة الأدب من الداخل، مع التركيز على تحليل البنى الداخلية للنص وفك رموزه.

وقد حدّد فرديناند دي سوسير وظيفة اللسانيات ومهمتها باعتبارها وصفية وليست معيارية، حيث خلص إلى هذه النتيجة بعد أن أقام الفرق بين اللغة والكلام، فاكشف أنّ دراسة اللغة تستوجب البحث في أنظمة كامنة فيها، بما تحتويه من أبنية وشبكات علاقات تحكمها عملية التقويض وإعادة التشكيل والبناء، وهو ما أثار شغف الدارسين الغربيين لخوض تجربة التجديد والبحث النقدي (بوجليع 2023، ص. 224-246). ومن هنا ظهرت المناهج النقدية المعاصرة مسلحة بأدوات وآليات إجرائية تساعد على استكناه النصوص وكشف أسرارها. وقد تطوّر النقد الأدبي إلى مناهج متنوعة تتجاوز الملكة الذوقية لتصبح "سياقية" ثمّ "نصانية"، محققة قراءة دقيقة للنصوص بغض النظر عن المؤلف، باستخدام منهجيات مثل البنيوية، الأسلوبية، السيميائية، التفكيكية، والتداولية. ويأتي ذلك بعد ممارسة نقدية متواصلة تمنح الناقد خبرة تمكنه من التعامل مع النصوص الأدبية المختلفة، سواء السردية أو الشعرية، بحيث يصبح قادراً على ممارسة النقد بطريقة منهجية وفعالة، كما يوضّح المنهج السيميائي من بين تلك المناهج النصانية المعاصرة.

يُعدّ المثقّف الجزائري جزءاً لا يتجزأ من المنظومة النقدية العالمية، ما يعني أنه يشارك في التفاعل مع المعادلات المفاهيمية ذات

الأبعاد الإبستمولوجية والفلسفية والثقافية والحضارية. ومن هذا المنطلق، يطرح البحث التساؤل الأساسي حول كيفية تعامل النقاد الجزائريين مع المناهج النسقية، وبخاصة المنهج السيميائي. ولتوضيح هذا التساؤل، يمكن تفكيكه إلى إشكاليات فرعية تتصل بالموضوع مباشرة، وهي:

ما مدى تطبيق المنهج السيميائي في المدونة النقدية الجزائرية؟
هل يعود ضعف التطبيق إلى صعوبة فهم الأصول الإبستمولوجية والخلفيات الفكرية للمنهج، أم إلى شموليته وتعدد أدواته واختلاف تطبيقه على أشكال الأدب المختلفة كالقصص والسرد والشعر؟

1. التأصيل للمناهج النسقية:

الإشكاليات المطروحة مهمة للغاية، لأنها تساعد على فهم الظاهرة النقدية النسقية في الجزائر وتمكن الباحث من تحديد المسار الصحيح لدراسة هذا النوع من النقد. لقد تلقّف الناقد الجزائري هذه المناهج من الآخر – أي الغربي – عبر ثقافة وترجمة واستلهام، أحياناً مع تردد نتيجة الظروف الاجتماعية والقيود الاستعمارية، التي حدّت من الإنتاج النقدي المحلي وجعلت البيئة الأدبية مهيأة لاستقبال المنجز الغربي. ومع مرور الوقت، أزال تبني النقد العربي لهذه المناهج التردد، واهتدى النقاد إليها في مقاربتهم النصية. وقد ساهم النسق السيميائي في تجديد المرتكزات العملية النقدية وتطوير آلياتها، وتجاوز هيمنة النقد السياقي التقليدي. كما فتحت هذه المناهج المجال أمام تطوير مناهج تحليلية متنوعة مثل الشكلانية والتفكيكية والأسلوبية

والسيميائية، ما جعلها أداة فعالة لاستتطاق النصوص الأدبية وفهم دلالاتها بشكل أعمق.

أصبح الناقد الجزائري ينظر إلى النص برؤية مستعلية، مترفعة عن كل ألوان النقد الجاهز، وتتجاوز رؤيته جميع المناهج المعدة من قبل، والتي صُممت لباساً لنصوص تكابد وتكافح عبثاً لطمس المرجعيات والإيديولوجيا، لأنها غير قادرة على الانخراط في لعبة قوامها الأشكال والدوال واختلاف اللغات. أضحي النص متمنعاً، محتملاً واحتمالاً، يمكن أن يباغتنا في أي لحظة. إنه النص المرجع الذي لا يمكن الوصول إليه ببساطة وسهولة؛ هو نص القراءة. أما نص الكينونة، أي نص الموضوع، فهو النص الذي لا يخرج عن سلطة الأشكال النقدية ولا يمكن أن يتجاوز المناهج.

إن النص الغزير يسحب قارئه إلى عالم معرفي يأبى ويرفض كل عمليات التسطيح أو محاولات التدجين أو الاحتواء الإيديولوجي والسياسي (خمري، 2007، ص. 9-10).

على ضوء ما سبق، يجد المتصفح والمقلب في المدونة النقدية النسقية في الجزائر نفسه أمام كم لا يستهان به من البحوث التي حاول كتابها التعريف بهذه المناهج، بغرض تبسيط حمولاتها المعرفية والمفهومية للباحث في بلادنا من ناحية، وتطبيقها على النصوص العربية بكل أنواعها، سواء كانت فصيحة أو عامية، من جهة أخرى. وقد بدأ ذلك بالمنهج البنيوي الذي مهد الطريق للمناهج التي تلتها لاحقاً، كالأسلوبية والسيميائية وصولاً إلى التفكيكية. وقد تسابق نقادنا

لتقديم هذه المعارف في منجزاتهم وأعمالهم بشكل لافت للانتباه، خاصة في أواخر السبعينيات وبداية الثمانينيات من القرن الماضي. إلا أنّ الاختلاف بين نقادنا في تبني هذه المناهج كان واضحاً وجلياً، وذلك لعدة اعتبارات وأسباب. فنجد من التزم بمنهج واحد في أعماله، داعياً إلى اعتماده كوسيلة لاستتطاق النصوص، حتى اشتهر به، ومنهم من كان أكثر مرونة في التعاطي مع مسألة الالتزام، فراح يزواج ويثالث ويركب ويخلط بين هذه المناهج، غايته الحصول على تكامل منهجي قادر على الإحاطة بالنص من جميع جوانبه وزواياه. ويظهر هذا بشكل جلي في أعمال بعض النقاد، مثل عبد الحميد بورايو في كتابه منطق السرد، حيث يتراوح منهجياً بين السيميائية والبنوية والواقعية. كما نجد الناقد عبد الملك مرتاض لا يكتفي بتبني هذه المناهج، بل يدعو إليها في العديد من كتبه، وتشير عناوين كتبه التحليلية إلى ذلك أيضاً.

وكل ما تقدّم يبرّر قصور المنهج الواحد في الكشف عن المكونات النصية عند استتطاقها. فنجد الناقد عبد الملك مرتاض أحد دعاة هذا التوجّه. وما يهمنا في هذا المقام هو النقد السيميائي، الذي محور وجوهر موضوعه العلامات اللغوية وغير اللغوية في إطارها العام، في علم برز نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، واتخذ تسمية له: السيميائية (Sémiotique) أو السيميولوجيا (Sémiologie). ويعود السبق والفضل في اكتشافه إلى جهود وأبحاث العالمين: السويسري فرديناند دي سوسير والأمريكي تشارلز سندرز بيرس.

ويرى سوسير أنّه "يمكننا أن نتصوّر علماً يدرس حياة العلامات في كنف الحياة الاجتماعية، وقد يشكّل قسماً من علم النفس الاجتماعي ومن علم النفس العام، نسميه السيميولوجيا، ويرى أيضاً أنّ الألسنية ليست قسماً من هذا العلم." (de Saussure, 1994, p. 33)

بالرغم من ميلاد هذا العلم في أحضان الثقافة الأمريكية والأوروبية، إلا أن كينونة وجوده من الناحية التاريخية تعود إلى عصور غابرة، وإلى ثقافات أمم متجذرة ومتأصلة في تاريخ البشرية، كالهند والإغريق والعرب المسلمون وغيرهم. ومع ذلك، يتفق الجميع على أنّ اكتمال نضجه المعرفي المتجانس وظهوره إلى الساحة يرجع إلى ستينيات القرن العشرين، حين بدأ يكتسب صبغة الانتشار والتعميم، ويتطلّع إلى إرساء قواعده وتأسيس نظرياته. ومن الوهلة الأولى، ارتسمت الأطر المرجعية للمنهج السيميائي وتحدّدت معالمه في البلاغة والفلسفة والمنطلق واللسانيات، لتضاف إليها العلوم الدقيقة كعلوم الرياضيات عامة وفلسفتها بشكل خاص، والتي انطوت تحت لواء المنطلق الرمزي (يوسف، 2006، ص. 35).

لعل تظافر جهود كل من دي سوسير وبيرس، ومن هذا حذا حذوهم بعدهم أمثال يلمسيلف وبنفنيست وتروتيسكوي ومونان وبارت وكريستيفا وغريماس ولوتمان وأمبرتو إيكو وغيرهم، أوصل السيميائية إلى ما وصلت إليه، فتشكّلت تيارات سيميائية اتسمت بالتمايز والتعایش ضمن منظومة علامية، تقدّم نفسها كعلم شمولي يبسط سلطته على سائر العلوم ويتسيّدّها، بوصفها أقاليم علمية خاضعة لسلطانها ومرتبطة بقوانينه وتنظيماته المركزية.

وفيّ نظر سوسير، تتطّلق السيميائية من منظومة جديدة للوقائع، على اعتبار أن اللغة عبارة عن بنية دلائل تعبّر عن الأفكار؛ فهي، وفقه، بنى ثنائية التركيب (دالّ ومدلول) لها وظيفة تعبيرية مميزة، أي وظيفة رمزية داخل المجتمعات المختلفة، والعلاقة بينهما اعتبارية. ويرى سوسير أنّ السيميائية لا تهتم باللغة فقط، بل تتعدّها إلى دراسة العلامة عموماً، سواء أكانت مكتوبة أم لفظية أم أبجدية تخص فئة من المجتمع مثل ذوي الاحتياجات الخاصة (الصم والبكم)، أو أشكالاً وسلوكاً، أو علاقات طبيعية، إلى غير ذلك من العلامات (يوسف، 2006، ص. 35).

لقد كان للجهود السبّاقة في تبني هذا المنهج دورٌ كبير في جني ثمارها، حيث تجلّت هذه الجهود في تأسيس الجمعية الدولية للسيميائية سنة 1969، والتي تولى أمانتها العامة غريماس. وقد بدأت الجمعية بعقد مؤتمراتها وملتقياتها، مع إصدار مجلّتها الفصلية (*Sémiotica*)، فأنشأت فرقاً بحثية متخصصة. وفي سنة 1974 صدر لها قاموسان سيميائيان متخصصان؛ أحدهما لمؤلفه ج. راي دوبوا الموسوم بعنوان *Lexique Sémiotique*، والآخر أعقد وأضخم في المادة والمعالجة، وقد شارك في تأليفه كل من جوليان غريماس وجوزيف كورتيس تحت عنوان *Sémiotique dictionnaire raisonné de la théorie de la langue* (وغليسي، 2007، ص. 97).

لقد تمكنت السيميائية في خضم الدراسات النقدية من تحقيق قفزة ونقلة نوعية، لا سيما على مستوى الخطاب النقدي الحديث، فاتخذت قرار القطيعة الجذرية مع الممارسات النقدية التقليدية للخطاب السردية، وكرّست جل اهتماماتها وأولوياتها للتعامل مع المتون بطريقة

خاضعة للضوابط العلمية، مما أكسبها خطاباً علمياً جديداً يركز على مصطلحات ذات أسس ومرجعيات علمية محددة (بلوحي، 2002، ص. 112). واتسم هذا الخطاب في غالب الأحيان بالصرامة المنهجية، ومن هنا شاع صيت السيميائية، وأصبح الحديث عن معالمها، التي تحدّد مسار الخطاب الأدبي في ضوء قراءاتها ومقارباتها، يشكل نقاشاً وجدلاً واسعاً. وخلف هذا السجل تراكمات وكثافة نقدية شبيهة أو معادلة لما نراه في المناهج النقدية النسقية، فحدث شرح وهوة فكرية داخل الوعي النقدي النسقي المحايث، والوعي النقدي المتعدد والمتبصر، والذي بدأت ملامحه تلوح في الأفق مع جوليا كريستيفا فيما أسمته بالسيميائية التحليلية (*Sémanalyse*) أو علم الدلالة التحليلي.

يجمع النقاد على أنّ التمثّل الواضح للمقاربات النسقية عموماً، والسيميائية بوجه خاص، مع الإبداع الأدبي وبالتحديد السرد، كان على أيدي الشكلايين الروس، مرجعين ذلك إلى ما دوّنه فلاديمير بروب، وما توصل إليه خلال تشريح مورفولوجية الحكاية الفلكلورية الروسية. ويعتبرون أنّ كل دراسة تتخذ الخطاب السردى موضوعها لابد أن تتطلق من تحاليله، وبهذا الشكل تعدّ الدراسة البروبية علماً للقص أو التحليل السردى للخطاب (رواينية، 1999، ص. 6).

ويحيلنا ذلك إلى القول إن التحليل السردى للخطاب لم يتمثل أو يتبلور مستواه السيميائي إلا مع بروب، وقد استقطب بحثه اهتمام المشتغلين في ميدان النقد الأدبي من أمثالهم ب. إخبانوم، ف. شلوفسكي، وتوماشوفسكي، سواء من حيث مكونات القصّ؛ أي

مجموع القوانين والضوابط والميكانزمات التي تتحكم في النسيج البنائي للخطاب السردي، أو من حيث سنن وعلامات تتيح إمكانيات فك رموزه (روائية، 1999، ص. 6).

لقد اعتمد عدد كبير من نقادنا على هذه الوظائف البروبية في مقاربتهم وتحليلهم لنصوصنا الشعبية المحلية. ولقد صار منجز بروب أنموذجاً يُقتدى به ويُعتدّ به منذ مطلع الستينيات، ويرجع السبب في ذلك إلى الطريقة الدقيقة التي تعامل بها الباحث مع تحليل الحكايات. ولعلّ هذا السبق في مثل هذه الدراسات كان له الفضل الكبير على المدرسة الفرنسية ذات التوجه البنيوي، لا سيما غريماس في كتابه علم الدلالة البنيوي، وكلود ليفي سترافوس في منجزه البنيوية الأنثروبولوجية، وكلود بريمون في مؤلفه منطق الحكاية. وهذه الأعمال تُعدّ أحد منابع والنُهل التي يغترف منها الدارس الجزائري، مستفيداً من الإطار النظري والتحليلي الذي أسسه بروب في دراسة الخطاب السردي وتحديد وظائفه البنيوية.

2. المنهج السيميائي في النقد الجزائري:

سجّل النقد السيميائي حضوره في الجزائر عبر ثلّة من نقادنا يمكن حصرهم في اتجاهين. الاتجاه الأول: يضمّ نقاداً مثل عبد الملك مرتاض، عبد الحميد بورايو، عبد القادر فيدوح، حسين خمري وغيرهم، حيث مارس هؤلاء السيميائية في أعمالهم تنظيراً وتطبيقاً. الاتجاه الثاني: اكتفى بالتأسيس لهذا المنهج الذي حلّ ضيفاً على المدونة النقدية الجزائرية من خلال نقل المعرفة التي عني بها الدرس السيميائي في مختلف مدارسه وتوجهاته.

وقد نتج عن هذا التيار عروض نظرية، معظمها اتسم بتدعيم الشق النظري بشق تطبيقي، حاول أصحابها من خلاله إثبات فعالية وجدارة هذه النظرية وكفاءتها في تفكيك مختلف النصوص العربية، سواء كانت شعرية أو نثرية (عقاق، 2004، ص. 345). وفيما يلي سنقدم مقتطفاً لما قام به الصنفان، وبشكل من الإيجاز والاختصار:

أ- الاتجاه الأول:

حاولت هذه الفئة من النقاد الجزائريين، الناقلة للسيميائية إلى بلادنا، التوفيق والجمع بين الجانب النظري والتطبيقي للمنهج. فتوجهوا إلى أنواع النصوص وقاربوها، ولعلّ ما يجمع هذه الدراسات هو تشابهها من ناحية المادة النظرية والتطبيقية للسيميائية. فنجد أن الناقد السيميائي الجزائري، قبل أن يشرع في تحليل أي نص، يبدأ ببسط أو مهاد نظري لهذا المنهج، موضحاً آلياته ومرجعياته وأصوله، ثم يتبعه بقسم تطبيقي على نص من النصوص.

فعلى سبيل المثال، نجد الناقد عبد الملك مرتاض، بعد تعامله مع المنهج البنيوي تنظيراً وتطبيقاً، يكشف ويشير نقائص البنيوية، ثم يسعى إلى البحث عن منهج أكثر شمولية يتيح له الاقتراب قدر الإمكان من حقيقة النص المنشودة، فيجد ذلك في المنهج السيميائي، فيسمي عناوين مؤلفاته بهذا المنهج ويتعامل معه في معظم ما أنتجه فيما بعد.

والأمر نفسه ينطبق على الباحث حسين خمري، الذي صدرت له دراسات عدة في هذا الحقل النقدي، أبرزها كتابه الموسوم نظرية النص، الذي يعتبر مؤلفاً قيماً لمحتواه المعرفي الغني، إضافة إلى دراساته

العديدة المنشورة في الدوريات العربية والجزائرية على السواء. تستقي هذه الدراسات المفاهيم والأطروحات السيميائية، خاصة الفرنسية منها. ومن بين ما قدّمه هذا الدارس، محاولته التأسيس لعلم العنوان (*Titrologie*) في الخطاب النقدي الجزائري والعربي معاً، حيث طُبّق ذلك على رواية تعود لغسان كنفاني، متجاوزاً الدراسة السيميائية للنص إلى محيطه العام، كالعنوان والإهداء والمقدمة والخط وعلامات الوقف، وما شابه ذلك.

لا ننسى، إلى ما سبق ذكره، أنّ لهذا الباحث دراسة مطوّلة بعنوان سيميائية الخطاب الروائي، تعرّض فيها لروايتي عبد الملك مرتاض وصوت الكهف بمنظار سيميائي، حلّ من خلالها سمات مثل: الصوت، الكهف، العقد، المرأة، والخنجر، وذلك في إطار نظام الأشياء، إضافة إلى دراسة السرد والشخص والأمكنة والأحداث بتدرجها وفق سلّم وبنية بروب للوظائف الحكائية الشعبية. ولا يفوتنا الإشارة إلى تتبعه لسمات الرواية الجديدة في هذه الرواية، مع اعتماده على طروحات كل من غريماس، كورتيس، بريمون، جينيت، بارت وغيرهم في بحوثه ودراسته، والتي تمكن من نقل بعضها إلى الساحة النقدية العربية، بينما سجل إخفاقه في نقل البعض الآخر بسبب اعتماده على جهده الشخصي في الترجمة (وغليسي، 2002، ص. 137 - 138).

ولإعطاء كل ذي حق حقه، يتفق الجميع على أنّ الباحث عبد القادر فيدوح يعد من الروّاد الأوائل للمنهج السيميائي في الجزائر. وقد أصدر مؤلفين سيميائيين مطلع تسعينيات القرن الماضي: دلائلية النص

الأدبي (دراسة سيميائية للشعر الجزائري) سنة 1993، والرؤيا والتأويل سنة 1994. في كتابه دلائلية النص الأدبي يلاحظ الدارس أنّ الناقد واجه عناءً كبيراً في ضبط مصطلحات دراسته، إذ يوظف مصطلحين نقديين لمفهوم واحد: السيميائية/الدلائلية، كما ازدادت الصعوبة المصطلحية لديه عند استعمال مصطلحات أخرى للدلالة على المفهوم نفسه، مثل السيميولوجيا، السيميوطيقا، والتأويلية.

أما في المجال التطبيقي، فلجأ إلى قصيدة جزائرية من التراث لبكر بن حماد التيهرتي، ومن ثم قرأ قصائد أخرى لشعراء جزائريين معاصرين مثل سعيد هادف، أحمد دلباني، خيرة حمر العين، وعاشور فني. وقد حكم لهذه القصائد مبدئياً بأنها أجود ما قيل في تجمع شعراء الجزائر المعاصرة، متجاوزاً القراءة السيميائية، وهو رأي نقدي يحمل بعداً معيارياً وانطباعياً، قبل أن يباشر فيما بعد في قراءة هذه النصوص وفق ما تقتضيه وتتمليه الدراسة السيميائية.

ب -الاتجاه الثاني:

دقق لغويا ومنهجيا.

3. شمولية المنهج السيميائي وعدم فهم مقولاته:

بالطبع، إليك النص بعد التدقيق اللغوي والمنهجي والأسلوبي مع تحسين السلاسة والفصاحة:

المهتم بالخطاب السيميائي والمتتبع لمسار حركته في النقد الجزائري يلاحظ التواشج والارتباط الوثيق بين هذا الخطاب وتوجهاته في بيئة المنشأ الغربية، فهو لا يكاد ينزاح أو يحيد عن أطره الخاصة والعامة. وقد حدث هذا منذ أن تبنى الناقد الجزائري هذا المنهج

كوسيلة وأداة لمقاربة النص الأدبي في نهاية القرن الماضي، فتغيرت بذلك نظرة الخطاب النقدي إلى النص، بعد اكتشاف أبعاد ومستويات نصية لم ينتبه إليها النقد الكلاسيكي.

غير أن هذا التغيير في المدونة النقدية الجزائرية لم يكن جاهزاً أو مكتملاً، بل عرف العديد من السقطات والتعثرات في بداياته الأولى. ولم ينجح من تتبأوا بهذا الخطاب في بلورة خطاب محلي مؤسس، حيث واجهوا واصطدموا بعراقيل وإشكاليات جمّة، تعدّ أهمها وأشدها وقعاً على النقد:

كثرة المفاهيم والمصطلحات المبهمة، ذات الحمولة الكثيفة المتصلة بالثقافة والبيئة والفلسفة والإيديولوجية الغربية في بيئتها الأصلية، والتي تختلف عن البيئة العربية بكل خصوصياتها وهويتها المميزة، وأحياناً تُسجّل فيها الدوال والمدلولات مبتورة ومنفصلة عن سياقاتها المعرفية الأصلية. ونتيجة لذلك تحوّلت المناهج إلى أدوات وآليات جوفاء وعرجاء لا تحيل على شيء. ولم تواجه هذه المشكلة الناقد الجزائري فحسب، بل اعترضت حتى الناقد العربي، مما دفع بعضهم إلى القول: "يجب على الدارسين في هذا المجال مضاعفة الجهود، متحرّين في ذلك الدقة والأمانة العلمية للترجمة في المراحل الأولى، ثم التنسيق مع الإخوان العرب في مرحلة ثانية للاتفاق على الترجمات المضبوطة والموحدة للمصطلحات" (صحراوي، 1985، ص.5).

يرى الحبيب مونسى أن المشكلة لا تكمن فقط في استعمال أدوات وآليات المنهج النقدي الغربي، بل في الاستيعاب الجيد لها قبل كل شيء، وفحصها بالمقدار الكافي مع ضرورة مراعاة الخصوصية

العربية، حيث يقول: "حينما أستعمل أدوات الآخر لقراءة التراث ليس لأنها أدوات جيدة وليس بالضرورة أن نكرر تجارب الآخرين، نحن مطالبون بقراءة الآخر حتى نستفيد منها، ويجب علينا الانتقال إلى فلسفة الفعل" (مونسي، 2000، ص.5).

التفاوت والاختلاف والتباين في تطبيق المنهج، وهي ظاهرة نلاحظها بين النقاد فيما بينهم، كما يمكن ملاحظتها عند الناقد الواحد نفسه، سواء تعلق الأمر بالمقارنة بين قصيدة وقصة، أو رواية وقصة، أو رواية وأخرى.

في مجال الترجمة والتعريب للدوال والمدلولات والمفاهيم والمصطلحات السيميائية، يؤكد بعض النقاد أن ما من باحث في المغرب العربي قام بترجمة مؤلف كامل لأحد النقاد الغربيين المعاصرين، فكل ما يُقدّم عادة لا يعدو كونه ترجمة مجتزئة لمقال أو فصل أو عدة فصول من كتاب، وأحياناً في هيئة تعليقات مختصرة على نظرية ما أو عدة نظريات مجتمعة. وغالباً ما تكون هذه الترجمات ناقصة، ومفصولة عن أصولها العلمية ومرجعياتها التي أسهمت في تأسيسها وبلورتها، مما يجعل استيعابها صعباً على القارئ (عقاق، 2006/2005، ص.6).

عقبة أخرى كانت حجرة عثرة أمام الناقد السيميائي الجزائري تمثلت في تعدد الاتجاهات وتشعبها في تعريف السيميائية وضبط مفاهيمها، إذ يستمد كل اتجاه مفاهيمه ومصطلحاته النقدية من مرجعيات ومدارس لسانية مختلفة ونظريات متباينة، ما يؤدي إلى اختلاف في تحديد مستويات التحليل. وقد تكون هذه الاختلافات

مقبولة عند اختلاف الاتجاهات، لكنها تستدعي الوقوف والتحري إذا
تعلق الأمر باتجاه واحد يشغل تحت مظلة نظرية سيميائية واحدة،
لكن إجراءات التحليل قد لا تتطابق عدداً ومصبواً (شرشار، 2002،
ص.129). ومن بين اتجاهات النقد السيميائي، أحصت الدراسات ثلاثة
اتجاهات رئيسية قدمها الباحث عبد القادر شرشار كما يلي:

I - يرى الاتجاه الأول أنّ السيميائية تُعنى بدراسة الأنظمة الدالة من
خلال الظواهر الاجتماعية والثقافية الملزمة للنص، انطلاقاً من
كونها جزءاً من اللسانيات، وقد مثل هذا الاتجاه كلٌّ من: رولان
بارت، وجيرو، وغريماس، وجوزيف كورتيس، ومحمد غرام، ورشيد
بن مالك.

II - أمّا الاتجاه الثاني فيرى أنّ السيميائية علم يدرس أنظمة الاتصال
عامة، سواء كانت لغوية أم غير لغوية، ويسعى أنصاره إلى تحديد هذه
الأنظمة وفق عدد من الإشارات، وقد تبنّى هذا الاتجاه موان وغيره.

III - بينما حاول الاتجاه الثالث التوفيق بين الرمز اللغوي والرمز غير
اللغوي، باعتبارهما عنصرين متكاملين في إطار اللسانيات، وقد مثل
هذا الاتجاه كلٌّ من: أومبرتو إيكو الإيطالي، وجوليا كريستيفا،
ومحمد مفتاح، وربما عبد الحميد بورايو (شرشار، 2002، ص.130).

ويختصّ هذا التصنيف بالسيميائيات السردية، وقد ارتأينا أن
يقتصر بحثنا على الاتجاهات السيميائية في النقد الجزائري. كما
يمكن الإشارة إلى قضية ثانية، تتمثل في أنّ هذه الاتجاهات أغفلت
المؤسسين والمنظرين والمطبّقين لهذا المنهج في مختلف الآداب العالمية،
وهو ما سنأخذه بعين الاعتبار في دراستنا النقدية المحلية. لقد مرّ هذا

المنهج بمراحل متعددة قبل أن تتضح رؤية النقاد له، ولذلك ارتأينا إدراجها ضمن اتجاهات النقد الجزائريين، مثل: التأسيس، والترجمة، والتعريب، إلى جانب الاتجاهات المشار إليها سابقاً.

وفي ظلّ هذا الزخم والتضارب المفاهيمي والمصطلحي، وتعدّد الترجمات والتعريبات وتوّعها، وعدم وفائها بالغرض أحياناً، انطلق الناقد الجزائري في البحث والتقصّي والدراسة، فكانت بدايته بالتأسيس والتعريف بهذا المنهج، قصد تيسير الطريق وتمهيد أمام النقاد الآخرين.

ويُعدّ كلّ من عبد الحميد بورايو، وعبد الملك مرتاض، ورشيد بن مالك، من روّاد هذا المجال، إلى جانب جهود نقاد آخرين. فبدعوى تجديد آليات مقارنة النصوص الأدبية، لجأ بورايو إلى استقدام النظريات الغربية إلى الساحة النقدية العربية، ولا سيما السيميائية، سواء من خلال الدروس التي دأب على تقديمها في مدرجات الجامعة منذ ثمانينيات القرن الماضي، أو عبر المقالات والمداخلات المنهجية الدقيقة التي أسهم بها في الملتقيات والمناسبات العلمية، أو من خلال مؤلفاته المنشورة تباعاً منذ أواخر الثمانينيات (عقاق، 2004، ص. 305).

لقد كانت بصمة هذا الناقد واضحة ونافذة في المدونة النقدية الجزائرية، وكان أثره جلياً في التأسيس للمنهج السيميائي، ولا سيما في كتابه (منطق السرد دراسات في القصة الجزائرية الحديثة)، إذ تناول في جزئه النظري رتابة المناهج التقليدية، داعياً إلى استبدالها بمناهج أكثر قدرة على خدمة النص الأدبي. ولم يدع الناقد السابق في هذا المجال، بل حرص على استعراض الأصول العلمية للسيميائية

السردية التي انتهجها، باعتبارها مشروعاً بحثياً يعتمد في دراسة
النصوص الأدبية على منجزات اللسانيات، والأنثروبولوجيا، والثقافة،
والإبستمولوجيا.

وقد استهلّ عرضه ابتداءً من أعمال جوزيف بيدييه (Joseph
Bédier، مروراً بالفتوحات المنهجية التي أرسنها (مورفولوجيا الحكاية
الخرافية الروسية) لفلاديمير بروب، وصولاً إلى إسهامات كل من: آن
دنكان، وليفي ستراوس، وغريماس، وتودوروف، وكلود بريمون
(عقاق، 2004، ص. 305).

كما نجد مؤسساً آخر للسيميائية السردية في النقد الجزائري،
هو رشيد بن مالك، الذي تميّز عن غيره من النقاد الذين تبوّأ المناهج
الغربية بوصفها أدوات نقدية، بكونه استقى السيميائية من منبعها
الأصلي؛ فهو خريج الجامعة الفرنسية، وتتلמד على يد غريماس، فضلاً
عن تمتعه بازدواجية لغوية (العربية والفرنسية). وقد أسهمت هذه
المعطيات في تأهيله للمشاركة الفعالة في تطوير النقد الجزائري، من
جهة، وتيسير المعرفة السيميائية عبر ترجمة المؤلفات الغربية، من جهة
أخرى.

ويلاحظ المتتبع لإنتاجات هذا الباحث تأثره الواضح بالمدرسة
الفرنسية، بل وتعصبه المنهجي لها، ولا سيما للأب الروحي للسيميائية
السردية أ. ج. غريماس. ففي كتابه (مقدمة في السيميائية السردية)،
يرجع أصول هذا المنهج إلى الشكلايين الروس، ويصرّح بأن:

الأصول العلمية للبحث السيميائي، بصرف النظر عن المظهر
التنظيري العام لبحوث الشكلايين الروس، التي ظهرت بين سنتي

1915 و1930، تقوم على معارضتهم للمناهج التقليدية في دراسة الأدب، وعلى تصورهم له بوصفه بنية شكلية تحكمها قوانين خاصة، مع التركيز على العناصر النصية والعلاقات المتبادلة بينها، وعلى الوظائف التي تؤديها في مجمل النص» (بن مالك، 2000، ص. 28-29).

وتكمن القضية الجوهرية التي جعلت رشيد بن مالك يُعدّ من المؤسسين الفعليين لهذا المنهج في النقد الجزائري، في جهوده المعتبرة في مجال الترجمة، إذ أسهمت ترجماته للكتب الغربية في تبسيط المعرفة السيميائية لدى النقاد محلياً وعربياً.

أمّا الناقد الثالث البارز في هذا المجال فهو عبد الملك مرتاض، الذي أغنى الساحة النقدية بإنتاجه الغزير، ويُعدّ من أوائل الثائرين على المناهج التقليدية، رغم أنه مارسها زمناً طويلاً. ففي مطلع الثمانينيات أعلن اعتراضه عليها، متبنيًا المناهج الغربية الحديثة، وهو ما يتجلى في كتابيه: (النص الأدبي: من أين وإلى أين؟) (1983)، و(بنية الخطاب الشعري: دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمنية) (1986).

وقد أسّس مرتاض منذ بداية الثمانينيات للمناهج الحديثة في النقد الجزائري، حيث انطلق في بداياته من المنهج البنيوي، مؤكداً أن: المدار في المنظور الحديث على الدراسة العمودية المنهجية، لا على الجمع، وعلى الملاحظة الدقيقة لا على الشرح التعليمي الأفقي...» (عكاشة، 1992، ص. 105).

ويُحسب لهذا الباحث جرأته في مساءلة التراث العربي والنظريات الغربية، وسعيه الدائم إلى تقصي الحقيقة النقدية، رغم طابعها النسبي. كما تميّز بشغفه بالإجابة عن الإشكالات المعرفية، وهو ما

دفعه إلى تنويع مقارباته للنصوص الأدبية، من الشعر العمودي والحر، إلى السرديات بمختلف أنواعها، فضلاً عن تأليفه عدداً من الكتب النظرية التي سعى من خلالها إلى التأسيس لنظرية سيميائية عربية، عبر المزاوجة بين المنجز الغربي والتراث العربي.

ويرى عبد الملك مرتاض أنّ السيميائية لم تنشأ بوصفها منهجاً مستقلاً، بل هي نتاج تفاعل مع مناهج سابقة، إذ يؤكد أن: معظم هذه المناهج مورث بعضها عن بعض... فالبنيوية، والسيميائية، والأسلوبية، وغيرها، لا يمكن أن تزعم نشأتها من عدم...» (مرتاض، 2010، ص. 113-114).

وانطلاقاً من هذا التصور، دعا مرتاض إلى اعتماد المنهج التكاملي، وطرح سؤالاً منهجياً محورياً في تحليل الخطاب الروائي: (بأيّ منهج؟)، ليخلص إلى أنّ المنهج السيميائي، مدعوماً بالبائنية والتفكيكية، قادر على الإسهام في حل الإشكالات التأويلية (مرتاض، 1995، ص. 3).

وبما أنّ السيميائية تُعنى بالدلالة بمستوياتها المختلفة: اللغوية، والإشارية، والرمزية، والمؤشرية، فقد سعى بعض النقاد إلى ردّ جذورها إلى التراث العربي، داعين إلى التنقيب فيه لفهم هذا المنهج فهماً عميقاً، انطلاقاً من ارتباط الدرس الدلالي العربي بالقرآن الكريم، وعلوم اللغة، والبلاغة، والنقد (عقاق، 2004، ص. 61 وما بعدها). كما اشتغل آخرون على المقارنة بين الدلالة العربية القديمة ونظيراتها الغربية (منقور، 2001، ص. 28 وما بعدها). وعموماً، فإن هذه الجهود وغيرها أسهمت في ترسيخ المنهج السيميائي في المدونة النقدية

الجزائرية، ومهدت الطريق للباحثين اللاحقين لشرح نظرياته وتطبيقه على مختلف الأجناس الأدبية.

غير أن مسألة الترجمة تبقى عنصراً حاسماً في تلقي هذا المنهج وتطويره، وهو ما يدفع إلى التساؤل: هل وجد في النقد الجزائري من تبني ترجمة المعرفة السيميائية الغربية وفق أسس علمية دقيقة، تراعي خصوصية النص المصدر واللغة العربية؟

لقد بذل النقاد العرب جهوداً معتبرة في ترجمة المؤلفات السيميائية، غير أن إسهام المترجم الجزائري ظلّ محدوداً نسبياً. ففي الساحة العربية، ترجم حميد الحميداني كتاب (الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة) لمارسيلو داسكال، وترجم سعيد بنكراد لأومبرتو إيكو كتاب (التأويل بين السيميائية والتفكيكية)، كما ترجم محمد الصالحي كتاب (التحليل السيميائي للنصوص) لطوسي روميركاستيو، فضلاً عن عشرات المقالات في المجالات المتخصصة.

أمّا في السياق الجزائري، فيُعدّ رشيد بن مالك من أبرز الناشطين في مجال الترجمة السيميائية، إذ ترجم كتاب (السيميائية: أصولها وقواعدها) لجوزيف كورتيس وآخرين، وكتاب (السيميائية (مدرسة باريس)) لجون كلود كوكي، كما ألّف كتاب (إشكالية ترجمة المصطلح في البحوث السيميائية)، تناول فيه صعوبات ضبط المصطلح السيميائي وإشكالات نقله إلى العربية (خلف الله، 2008، ص. 23).

ولئن افتقرت رفوف المكتبة الجزائرية إلى الترجمات المتخصصة في السيميولوجيا، فإنّ مؤلفات النقاد الجزائريين الحداثيين لا يكاد

يخلو كتاب منها، وإن جاءت في كثير من الأحيان مجتزأة، أو مقتصرة على الإحالة إلى نصوص قصيرة. أمّا قضية تعريب المصطلح السيميائي، فقد اتّسمت بطابع التعميم، والانزياح أحياناً عن دلالاته الأصلية، وما تحمله بنيته الثقافية من افتراضات، والسياقات المنهجية التي انبثق فيها. ويُعدّ ذلك نتيجة مباشرة لغياب استراتيجية واضحة في الترجمة والتعريب، تراعي خصوصيات المصطلح في بيئته الأصلية، وخصوصية اللغة التي انتقل منها وإليها، أي لغة المنقول عنه والمنقول إليه (العربية)، وهو ما أدى، لا محالة، إلى تنوّع التيارات السيميائية، وتعدّد المصطلحات والمفاهيم التي تحكم الخطاب النقدي العربي (بوخاتم، دت، ص.3).

ومن المسلّم أنّ الباحث العربي في هذا المنهج يواجه صعوبات جمّة، سبق أن أشرنا إليها ضمن فقرات موجزة حول العوائق والإشكاليات، ولا بأس بإعادة صياغتها هنا بصورة مقتضبة. ومن أبرز هذه الصعوبات وفرة المصطلحات، على نحو لا يكاد يوجد له نظير في المناهج النقدية الحديثة. وفي تقديرنا، فإنّ هذه الظاهرة لا تعبر عن نزعة إلى التحذلق العلمي بقدر ما تعكس صرامة المنهج، وحرص منظّريه على ضبط أدواته ومفاهيمه بدقة (العجمي، 1993، ص.13).

لقد كان للرواد الذين اضطلعوا بمهمتي التأسيس والتعريف فضلٌ كبير في رسم معالم الطريق لمن جاء بعدهم، إذ يفتح التأسيس المعرفي آفاقاً واسعة لممارسة البحث والإبداع. وقد أفاد الجيل اللاحق من هذه الجهود، وكان في مقدمة هؤلاء الرواد، في تقديرنا، عبد الحميد بورايو وعبد الملك مرتاض، اللذان ثارا في وقت مبكر على

المناهج الكلاسيكية السياقية، وسعياً إلى تفكيك هيمنة الفكر النقدي التقليدي، وتحويله من دائرة مغلقة إلى فضاء منفتح لا يخضع فيه الباحث لسلطة فكرية أو منهجية تحت أي مسمى.

وكما سبقت الإشارة، فقد تبنى هذان الناقدان الفكر الغربي الحديث، فكانت مؤلفاتهما من أوائل الأعمال التي نقلت المعرفة النقدية الغربية إلى المدونة الجزائرية. وقد أدركا أنّ الرتبة والجمود المنهجي قد بلغا طريقاً مسدوداً، ولم يعودا يعكسان قيمة العقل النقدي ولا حيويته، بعد أن غدت كثير من مقولاتهما مستهلكة ومكرورة. ولذلك توجّها في البداية إلى البنيوية الشكلائية، ثم ما لبثا أن انتقلا إلى المنهج السيميائي، انطلاقاً من شمولية منظوره واتساع مجاله التحليلي. فاشتغلا بالتأسيس والتعريف والمقاربة والتحليل، وحاولا في كثير من الأحيان الانخراط في التنظير المنهجي.

أمّا الجهد الثاني البارز في مسار توطين السيميائية في النقد الجزائري، فيعود - في رأينا - إلى الناقد والباحث الراحل رشيد بن مالك، ولا يمكن إنكار الدور الحاسم الذي تؤديه الترجمة في تطوّر الأمم ورقّيها. فقد بذل هذا الباحث جهوداً كبيرة في نقل المؤلفات الغربية، ولا سيما الفرنسية، إلى الساحة النقدية الجزائرية، قصد الإفادة منها وتيسير تداولها بين الباحثين.

لقد أسهم هذان الاتجاهان في تحفيز الناقد الجزائري ودفعه إلى التوجّه نحو المنهج السيميائي. وكما سبق بيانه، فقد اتّخذ بعض نقادنا السيميائية بوصفها نظرية تواصلية شاملة، مهما كان شكل هذا

التواصل ونوعه، لسانياً كان أم غير لساني، باعتبار أنّ اللغة تمثل جزءاً من منظومة التواصل العام.

في المقابل، ركّز الاتجاه الثاني على التواصل اللغوي، متّخذاً من الدلالة اللغوية في النصوص الأدبية غايةً لاستجلاء البنيات النصية واستكناها والكشف عن آليات اشتغالها. وقد لاحظنا أنّ أصحاب هذه الوجهة تأثروا بالمدرسة الفرنسية، بحكم إتقان معظم النقاد الجزائريين للغة الفرنسية، فضلاً عن تخرّج عدد منهم في جامعاتها، وعلى رأسها جامعة السوربون. ومن جهة أخرى، شكّلت الدلالة بوصفها مادة الخطاب والنص محفّزاً لهؤلاء النقاد للكشف عنها بطريقة علامية، لا تحيد في الغالب عن نطاق النص وبنيته الداخلية.

أمّا أصحاب الوجهة الثالثة، فقد اتّجهوا نحو المقاربة الثقافية، ساعين إلى التوفيق بين الاتجاهين السابقين. فالخطاب، بوصفه أداة للتواصل، لسانية كانت أم غير لسانية، مكتوبة أم شفوية، يُعدّ في الوقت ذاته منظومة من العلامات والدلالات التي لا تقتصر على البنية اللغوية، بل تتجاوزها إلى الظروف المحيطة بإنتاجه، مثل: السياق التاريخي، وشخصية الكاتب، وثقافة المجتمع، والعوامل النفسية. وتتكامل هذه العناصر جميعها لتنتج خطاباً مشحوناً بالعلاقات والإشارات والرموز والأيقونات والبنيات الدلالية المتداخلة.

ورغم هذا التباين في التوجّهات، فإنّ المشروع السيميائي يواصل تقدّمه داخل الخطاب النقدي الجزائري. ولعلّ هذا الاختلاف ذاته أسهم في إثراء المنهج وتعزيز مرتكزاته المعرفية والعلمية، ذلك أنّ السيميائية، بوصفها مشروعاً ذا طبيعة شمولية، تستمد أدواتها من

مختلف الحقول المعرفية. وهو ما يجعل التنوع والاختلاف سمةً ملازمة
لمسارها النقدي.

كما يمكن القول إنّ تفاوت فهم النظريات الغربية، وتعدد
الميولات الفكرية والمنهجية للنقاد، كان له دور واضح في تشكيل
هذه التوجهات المختلفة، ومن ثمّ في إبراز تباين قراءاتهم ومقارباتهم.
وانطلاقاً من ذلك، يطرح هذا التعدّد سؤالاً منهجياً جوهرياً
مفاده: هل كان تبني النقاد الجزائريين للمنهج السيميائي تبنيّاً آلياً
وميكانيكياً، أم أنّه اقترن بمحاولات للإضافة والتطوير والتقيح،
بما يتلاءم مع خصوصية السياق الثقافي والمعرفي المحلي؟
خاتمة:

وخلاصة القول، واستناداً إلى ما جُمع من مادة معرفية في إطار
هذا البحث، يمكن التأكيد أنّ الناقد الجزائري قد تبني المنهج
السيميائي في الأساس عن النقاد الغربيين. ورغم ادّعاء بعض النقاد
تقديم إضافات أو تعديلات، فإنّ هذه الإسهامات لا تتجاوز - في
معظمها - حدود شرح أفكار مطروحة سلفاً في النقد الغربي، أو
إعادة صياغتها بلغة عربية ولبسة أسلوبية محلية، أو إرجاعها إلى
مفاهيم سبق أن تناولها التراث العربي في سياقات مختلفة، في محاولة
لإحيائها وإعادة توظيفها.

وينطبق هذا الحكم، على وجه الخصوص، على الدراسات التي
اعتمدت المنهج السيميائي في مقارنة النصوص الشعرية. أمّا الدراسات
التي تناولت النصوص السردية، فقد تبنت المعرفة الغربية شكلاً
ومضموناً وروحاً، نظراً إلى غياب الأطر النظرية السيميائية الخاصة

بالسرد في التراث العربي. غير أنّ ما يُحسب لهؤلاء النقاد هو جهودهم في الترجمة والتطبيق، وفي التأسيس والتعريف بهذا العلم، والسعي إلى نشره، لا في المدونة النقدية الجزائرية فحسب، بل في الساحة العربية عموماً.

وقد بذل هؤلاء الباحثون جهوداً كبيرة في نقل هذه المعرفة، وترجمة مصادرها، ومراجعتها وتدقيقها، حتى إنّ القارئ يلحظ في مقدمات مؤلفاتهم إشارات متكررة إلى الصعوبات المنهجية والاصطلاحية التي واجهوها، فضلاً عن تأكيدهم المستمر على أهمية التعاون العلمي فيما بينهم، إدراكاً منهم أنّ بناء معرفة نقدية محلية رصينة لا يمكن أن يتحقق إلا بتضافر الجهود وتكاملها.

كما يكشف التتبّع الدقيق للمتن السيميائي في النقد الجزائري عن تنوّع الممارسات التطبيقية، واتساع مجالات اشتغالها، لتشمل مختلف أنماط الخطاب، من الشعر العمودي والحر، إلى السرد بأشكاله المتعددة، كالحكاية الشعبية والقصة القصيرة والرواية. غير أنّ هذا التنوّع يوازيه تفاوت في مستوى الاهتمام، إذ يُلاحظ تركيز أكبر على المقاربات السردية، مقابل حضور أقلّ نسبياً للدراسات السيميائية المخصّصة للشعرية.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1 - بلوحي محمد، (2002) الخطاب النقدي المعاصر من السياق إلى النسق، الأسس والآليات، الجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع.
- 2 - بن مالك رشيد، (2000)، مقدمة في السيميائيات السردية، الجزائر، دار القصة للنشر.

- 3 -بوجليح صلاح بن عبد العزيز، (2023)، نظرية دي سوسير اللغوية: حقيقتها وصلتها بالنحو العربي. مجلة مقامات للدراسات اللسانية والنقدية والأدبية، المركز الجامعي بأفلو، الجزائر، مجلد 7، عدد 2.
- 4 -بوخاتم مولاي على، (د.ت.)، المصطلح السيميائي (الإشكالية والتجريب، بين الترجمة والتعريب)، مقال مخطوط غير منشور، الجزائر، جامعة سيدي بلعباس.
- 5 -جمال بوعالم، (2018)، العائق من الإستمولوجيا إلى الديداكتيكية - التوظيف الديداكتيكي لمفهوم العائق الاستمولوجي، مجلة التعليمية، الجزائر، منشورات جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف.
- 6 -خلف الله بن علي، (2008)، النقد السيميائي في الجزائر (اتجاهاته وأصوله)، مخطوط ماجستير غير منشورة لنيل شهادة الماجستير في النقد الحديث والمعاصر، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر.
- 7 -خمري حسين، (2007)، نظرية النص، (من بنية المعنى إلى سيميائية الدال) الجزائر، منشورات الاختلاف.
- 8 -رواينية الطاهر، (جوان 1999)، قراءة في التحليل السردى للخطاب، مجلة تواصل، جامعة عنابة، مج.1، ع.4.
- 9 -شرشار عبد القادر، (سبتمبر 2002)، مستويات التحليل السيميائي في مقارنة النص السردى، مجلة بحوث سيميائية، دار الغرب للنشر والتوزيع، جامعة تلمسان، العدد.1.
- 10 -صحراوي إبراهيم، (1985) قراءة سيميائية للمقامة البغدادية (لبديع الزمان الهمذاني)، مجلة آمال، الجزائر، السنة 14، العدد 61.
- 11 -العجمي محمد الناصر، (1993)، في الخطاب السردى (نظرية غريماس Greimas)، تونس، الدار العربية للكتاب.
- 12 -عقاق قادة، (2004)، السيميائيات السردية وتجلياتها في النقد العربي المغاربي المعاصر. (نظرية غريماس أنموذجا)، أطروحة دكتوراه الدولة، جامعة سيدي بلعباس.

- 13 -عقاق قادة، (2004)، في السيميائية العربية (قراءة في المنجز التراثي)، الجزائر، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع.
- 14 -عقاق قادة، (2006/2005)، مدخل إلى أصول الخطاب النقدي المغاربي (أصنافه ومستوياته)، مقال مخطوط غير منشور، الجزائر، جامعة سيدي بلعباس.
- 15 -عكاشة شايف، (1992)، نظرية الأدب في النقيدين الجمالي والبنوي في الوطن العربي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.
- 16 -مرتاض عبد الملك، (2010)، نظرية القراءة نظرية القراءة، تأسيس النظرية العامة للقراءة الأدبية، الجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع.
- 17 -مرتاض عبد الملك، (1995)، تحليل الخطاب السردى (معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية «زقاق المدق»)، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.
- 18 -منقور عبد الجليل، (2001)، علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، سوريا، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
- 19 -مونسي حبيب، (2000)، القراءة والحداثة، سورية، منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- 20 -وغليسي يوسف، (2002)، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، الجزائر، رابطة إبداع الثقافية.
- 21 -وغليسي يوسف، مناهج النقد الأدبي، جسر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.
- 22 -يوسف أحمد، (خريف 2006)، السيميائية ومركزاتها الإيستيمولوجية، مجلة سيميائيات، جامعة وهران، الجزائر، ع. 02، منشورات دار الأديب، الجزائري.

23-Ferdinand de Saussure, (1994) *cour de linguistique générale*, ENAGE Edition, 2eme Edition, Alger.

